﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾ [المائدة: 105]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

سببُ الإعذارِ والإنذارِ الجهالةُ والعنادُ والإصرارُ

لمّا بيّن الله ﷻ أنواعَ التّكاليف والشّرائع والأحكام، قال: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٩٩﴾ [المائدة: 99]، إلى قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ [المائدة: 104]، كأنّه تعالى قال إنّ هؤلاء الجهّالَ، مع ما تقدّمَ من أنواع المبالغةِ في الإعذارِ والإنذارِ، والتّرغيبِ والتّرهيبِ، لم ينتفعُوا بشيءٍ منه، بل بقَوا مُصرّين على جهالتِهم وضلالتِهم، فلا تُبالُوا أيّها المؤمنون بجهالتِهم وضلالتِهم، بل كُونوا مُنقادين لتكاليفِ الله، مُطيعين أوامرَه ونواهيَه، فلا يضُركُم ضلالتُهم وجهالتُهم، فلهذا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

لفظُ النّفس تعبيرٌ مجازيٌّ عن الانسان، والقصدُ الأنفُسُ المُخاطَبونَ بالحُكم في الآيةِ

1) ﴿أَنفُسَكُمۡۖ﴾: جمع قِلّة على وزن أفعُل، المفرد منه نفسٌ، وأصلُه من (نَفَسَ)، وهو "يدلُّ على خروجِ النَّسيم، كيفَ كانَ، من ريحٍ أو غيرِهَا... والنّفسُ الدَّمُ، وهو صحيحٌ، وذلكَ أنَّهُ إذا فُقدَ الدَّمُ من بدنِ الإنسانِ فقدَ نفسَهُ"[2]، معنى ذلك أنّ النّفسَ يُعبّر بها عنِ الانسان، وهو تعبيرٌ مجازيٌّ، وَفقًا لما سبق، وهو هنا كذلك في هذه الآية، فالأنفُس هم المخاطَبون بهذه الآية، وقد يكون معناها الرّوح[3]، وهو صحيح، فكلُّه يُستدلُّ به على الإنسان.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/304.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفس).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (نفس).

الـضَّـرَرُ ضـدُّ الـنّـفـعِ، وهـو النُّقصان يدخُلُ في الشّيءِ

2) ﴿لَا يَضُرُّكُم﴾: فعلٌ مضارعٌ، الماضي منه (ضرّ)، ويُسمّى مضعّفَ الثّلاثيّ، أصلُه (ضَرَرَ)، وهي أحرفُ جذرِه، "والضَّرَرُ النُّقصانُ يدخُلُ في الشّيء، تقول دَخَلَ عليه ضَرَرٌ في ماله"[1]، وفيه معانٍ أخرى، منها كونُه ضدَّ النّفع، ومنه سوءُ الحال والفقر[2]، وما جرى مجرى ذلك، وكلُّها تعودُ الى المعنى الأوّل، وهو المعنى المرادُ في الآية، أي لا يصيبُكم من هذه الأمور الضّارّة إذا اهتديتُم.

الـضّـلالُ ضـدُّ الـهـدى، والمـقـصـودُ به هـنـا الـعُـدولُ عـنِ الـطّـريـق المستقيمِ

3) ﴿ضَلَّ﴾: فعلٌ ماضٍ، ويُسمّى مضعّفَ الثّلاثيّ، أصلُه (ضَلَلَ)، وهي أحرف جذرِه "والضّلال ضدُّ الهدى، وضلّ في الأَمر ضلالًا إذا لم يهتدِ لَهُ، وضلّ في الأَرض ضلالًا إذا لم يهتدِ للسّبيل"[3]، والمقصودُ في الآية العُدولُ عنِ الطّريق المستقيم.

مَرجِعُكُم منَ الرّجوع، وهو العودُ إلى ما كان منه البدءُ

4) ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾: مصدرٌ ميميٌّ زنةُ (مَفعِل)، والأصلُ منه (رَجَعَ)، ومعناه الرّجوع وهو "العودُ إلى ما كان منه البدءُ، أو تقديرُ البدء مكانًا كان أو فعلًا، أو قولًا، وبذاته كان رجوعُه، أو بجُزء من أجزائه، أو بفعل من أفعاله"[4]، أي أنّ معادَكم إليه سبحانه، والمصدرُ يُمثّلُ الأصلَ والأولية، فكأنهّم يعودون إلى الأصل.

5) ﴿جَمِيعًا﴾: اسمٌ يُستعملُ في باب التوّكيد المعنويّ، والجذر منه (جَمَعَ)، ومعنى الجمعِ أنّه يأتي ضدَّ المتفرّق[5]، وهو أن تضمَّ شيئًا إلى شيء، لأجل التّقريب، ومعنى جميعًا أنّكم تعودون إليه كلّكم، لا يتخلّف أحدٌ.

6) ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾: فعلٌ مضارعٌ مضعّفٌ، و(ينبئُ) زنةُ (يُفعل) الماضي منه نبّأ، بمعنى أخبر، أصلُه من (نَبَأَ)، ومعناه في الأصل

(1) الخليل، العين: (ضرر).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ضرر).
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (ضلل).
(4) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (رجع).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (جمع).

المجيء من مكان إلى مكان آخرَ[1]، والعلاقةُ مع "الخبرِ لأنَّهُ يأتي من مكانٍ إلى مكانٍ والمنبئُ المخبرُ"[2]، والمعنى أنّ الحقَّ ﷻ، سيُخبرهم بما كان لهم من عملٍ في الدّنيا.

ينبئُ بمعنى يُخبر، وهو في الأصل المجيءُ من مكانٍ إلى آخرَ

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الأمرُ بتزكيّةِ الأنفُس، دون التفاتٍ إلى ضلال الآخرين وفسادِهم:

أمر اللّه سبحانه المؤمنين بضرورة محافظتِهم على أنفسِهم منَ الوقوع في المعاصي والذّنوبِ والإصرارِ عليها، ووجوبِ تزكيتِهم لأنفسِهم، وعدمِ الالتفات إلى كُفرِ مَن كفرَ، أو ضلالِ مَن ضلّ، بعد القيامِ بواجب الأمرِ بالمعروف، والنّهي عن المنكرِ.

الانشغالُ بالنّفس وعيوبِها لا يمنعُ منَ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكرِ

فقد كان المؤمنون تذهبُ أنفسُهم حسرةً على أهل العُتوِّ والعنادِ منَ الكافرين، ويتمنَّون دخولَهم في الإسلام، فقيل لهم ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، وما كُلّفتُم من إصلاحها والمشي بها في طُرقِ الهدى، لا يضرّكم الضّلالُ عن دينكم، إذا كنتم مُهتدين، كما قال اللّه ﷻ لنبيّه ﷺ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: 08]، وكذلك من يتأسّفُ على ما فيه الفسقةُ منَ الفجور والمعاصي، ولا يزال يذكرُ معايبَهم ومناكيرَهم، فهو مخاطَبٌ به، وليس المرادُ تركَ الأمر بالمعروف، والنّهي عنِ المنكر، فإنّ مَن تركَهُما مع القُدرةِ عليهما فليس بمهتدٍ، وإنّما هو بعضُ الضّلاّل الّذين فصلتِ الآيةُ بينه وبينهم[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

خروجُ الجارّ والمجرور عن معناه الحقيقيّ، إلى معنى اسمِ الفعلِ:

المعنى في الآية على حذف مضافٍ (الزموا شأنَ أنفسكم)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: يا أيها الّذين صدَقوا اللّه ورسوله، هو

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نبأ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نبأ).
(3) الزّمخشري، الكشّاف: 2/304.

خطابٌ يُنبئُ عن أمرٍ مُهمٍّ، فهو كما قال الأقدمون: إمّا أن يلِيَه أمرٌ أو نهيٌ، وقولُه: ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ ظاهرُ هذه الجملة أنّها مؤلّفةٌ منَ الجارّ والمجرور والاسمِ المنصوبِ، إلّا أنّ الجانبَ الدّلاليَّ لهذه الجملة هو الزموا أنفسَكم بحفظها وهدايتِها، فقد خرج الجارّ والمجرور عن معناه الحقيقيِّ إلى معنًى آخر وهو "اسمُ فعل... يرفع فاعلًا تقديره عليكم أنتم"[1]، وهو اسمُ فعلٍ منقولٌ من شبهِ الجملة (الجارّ والمجرور)، أمّا ﴿أَنفُسَكُمۡۖ﴾، فهو مفعولٌ به منصوبٌ لاسم الفعل: عليكم، وهذا النّصبُ يُسمّى النّصبَ على الإغراءِ[2]، وهو في المعنى على حذف مضافٍ؛ لأنّ أنفسَكم جمعُ (نَفسٍ)، فليس المقصودُ أن يلزم الإنسانُ نفسَه، أو ذاتَه؛ لأنّ الأنفُسَ والذّواتِ ليست محلًّا للحلِّ والحُرمةِ، فالمعنى هنا (الزمُوا شَأنَ أنفُسِكُم)[3].

قولُه تعالى: ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ آيةٌ جرت مَجرَى المثَلِ:

كلُّ مسؤولٌ عن نفسه، والمطلوبُ الالتزامُ بالأمر والنّهي في إطار الاستطاعةِ

وهو تركيبٌ لُغويٌّ فريدٌ لم يرد مثلُه في القرآن الكريم، وهي آيةٌ ليست لها أختٌ في الكتاب الكريم، وأصبح يَجري مَجرى المثَل، لمن يقفُ عليها؛ لأنّ الوقفَ على (أَنفُسَكُم) وقفٌ صالحٌ[4]، فتقال بيانًا أنّ كلَّ إنسانٍ مسؤولٌ عن نفسِه، مع الالتزامِ بالأمرِ بالمعروف والنّهيِ عن المنكر، ما أمكنه ذلك، وعلى قدرِ الطّاقة البشريّة للمُسلمِ.

اختيارُ الأسلوبِ ليناسبَ الوجوبَ في قولِه: ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾:

دَلالةُ اختيارِ حرفِ الجرّ (على) الدّالِّ على العُلوّ والتّمكّنِ

واختيارُ حرفِ الاستعلاء (عَلَى) هنا له دلالاتُه؛ لأنّه لما كان الأمرُ متعلِّقًا بالوجوب والإلزام، حسُنَ أن يَختارَ له حَرفًا يناسبُ ذلك، فاختير (عَلَى) الدّالِّ على العُلوِّ والتّمكّنِ والتّلبُّسِ، وليشعرَ المخاطَبُ

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 4/452.
(2) الخليل، الجمل في النّحو، ص: 82.
(3) الأشمونّي، شرح الاشمونّي لألفيّة ابن مالك: 3/97.
(4) الأشمونّي، منار الهدى، ص: 260.

بهذه المعاني، فثمّةَ علاقةٌ وثيقةٌ بين الاستعلاءِ والإلزامِ، فمن لم يستعلِ لا يُلزمُ بقوّته، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب: 25]، فالعلاقةُ وثيقةٌ بين القوّة والعزّة، فلا يكون عزيزًا من لم يكن قويًا.

بَلاغةُ التّفرّدِ والتّقليلِ في الآيةِ، من خلال ثلاثةِ محاورَ:

تشتمل هذه القطعةُ القرآنيّةُ على جانبٍ بلاغيٍّ خفيٍّ وجميلٍ في آنٍ معًا، تُحقّقُ جانبَ التّفرُّدِ في عدم وجودِ ما يماثلُها في القرآن، وفي أنّها تُعطي مسحةً تقليليّةً للآية من خلال تسخيرِ الجوانبِ اللّغويّةِ للمعاني الدّلاليةِ، من خلال ثلاثةِ محاورَ (سماعيّةُ التّركيب - صيغتُه الصّرفيّةُ - دلالةُ الموصول).

المحورُ الأول: استعمالُ اللّفظِ السّماعيِّ المقيّدِ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ مناسبٌ للمراد:

اسمُ فعلِ الأمر ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾، ليس قياسيًا بل هو سماعيٌّ، واستعمالُ الصّورةِ السّماعيّةِ هنا، مناسبٌ للغرض الّذي أُتي به في الآية، وهو غرضٌ مقيّدٌ محصورٌ كالسّماعيِّ، في أنّه مقيّدٌ بما سُمع، ولا يمكنُ التّوسّعُ في القياس، وقد فُسّر بما رُوي عن أبي بكر ﷺ، في أنّ كثيرًا منَ النّاس لم تفهم هذه الآيةَ الفهمَ الصّحيحَ فبيَّنَ أنّه ليس المقصودُ تركَ الأمر بالمعروف والنّهي عنِ المنكر مطلقًا، «بلِ ائتمرُوا بالمعروفِ، وتناهوا عنِ المنكرِ، حتّى إذا رأيتَ شُحًّا مُطاعًا، وهوًى متّبعًا، وإعجابَ كلِّ ذي رأيٍ برأيِهِ، ورأيتَ أمرًا لا يدانِ لك بهِ، فعليكَ خويصَةَ نفسكَ، ودع أَمرَ العوامِّ»[1]، أي أنّ لزومَ المرء نفسَه مُقيّدٌ بما ورد عنه ﷺ في الحديث، فقد قيّده بدلالة (إذا) في أحوال الشّحِّ المطاع، والهوى المتَّبع... إلى آخر ما جاء في الحديث، فهنا على المرء أن يُلزمَ نفسَه، فهنا تناسبٌ بين السّماع وتقييدِ لزوم المرءِ نفسَه، في مثل هذه الأحوال؛ والسّماع والتّقييد في هذه الأحوال ينصبغ بصبغة التّقليل والتّفرّد، لأنّه أسلوب لم يرد مثلُه تمامًا في غيرِ هذا الموضع من القرآن.

المحورُ الثاني: ﴿أَنفُسَكُمۡ﴾ جمعٌ يدلُّ على القِلّة، إشارةً إلى أنّ التّركيبَ بصبغةِ التّقليلِ:

﴿أَنفُسَكُمۡ﴾، في هذا التّركيب مفعولٌ به لاسمِ الفعل ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾، مفردُه نفسٌ وصيغتُه الصّرفيّةُ أَفعُلٌ، وهو جمعُ تكسير، يدلُّ على القِلّة، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنّ التّركيب منصبغٌ

(1) الترمذي، السنن، الحديث رقم: (3058)، وابن ماجه، السنن، الحديث رقم: (4014).

مرّةً أخرى بصيغة التّقليلِ والتّنقُّصِ والتّفرّدِ، وأنّ هذا الأمرَ ليس على إطلاقه، بل هو قليلٌ ومقيّدٌ بما مرَّ من حديث الرّسولِ ﷺ، ولأنّه يجوز لغةً أن يقال (نُفُوسَكُم) وزنه (فُعُولٌ)، وهو من صِيغِ التّكسير الدّالّةِ على الكثرةِ، لكنّه سيشيرُ آنئذٍ للكثرةِ والإطلاقِ، والآيةُ في سياقها مبنيّةٌ على القلّة والتّنقُّص والتّفرُّد، كقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة: 155]، فسياقُ التّقليل والنّقص واضحٌ في الآيةِ، لذلك جاء بصيغةِ جمعِ القِلّة (الأنفُس).

القرآنُ لا يفتأ معالِجًا للأحوال النّفسيّةِ، ولو كانت قليلةً ونادرةً

المحور الثّالث: الإشارةُ إلى قِلّة المهتدين وكثرةِ الضّالّين في الآيةِ:

﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾، المعنى العامُّ لهذه القطعةِ القرآنيّةِ يُشير إلى قِلّة المُهتدين الّذين لزمُوا أنفسَهم، وكثرةِ الضّالّين هنا؛ نفى عنهم المضرّةَ إذا اهتدَوا، وضلَّ الأكثرون، والمتأمِّلُ هنا يجدُ أنّه استعملَ ﴿مَّن﴾ للضّالين، وهو اسمٌ موصولٌ، والكثيرُ أن يُستعملَ للعاقل، والقليلُ أن يُستعملَ لغيرِ العاقل[1]، أي أنّ له استعمالًا متعدّدًا، هذا أوّلًا، ثمّ إنّه منَ الألفاظِ المشتركةِ الدّلالةِ، فقد تردُ "للمسألة عنِ الأناسيِّ، ويكون بها الجزاءُ للأناسيِّ، ويكونُ بمنزلة (الّذي) للأناسيِّ"[2]، أي أنّها تأتي موصولةً وغيرَ موصولة، كالاستفهام والشّرطِ، وهذا ثانيًا، وقد تردُ للواحد أو الاثنين، وغيرِ ذلك[3]، هذا ثالثًا، ففي كلِّ هذه الأحوالِ تأتي (من) دالّةً على التّعدُّدِ، والتّعدّدُ نظيرُ الكثرة؛ كثرةِ الضّالين، وقِلّةِ المهتدين، فهذا هو المعنى العامُّ للآيةِ، إنّكم أيّها المهتدون قِلّةٌ، وهم كثرةٌ، وهذا لا يضرُّكم شيئًا، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: 103].

لا يضرُّ المهتدين على قِلّتهم أن يكثرَ الضّلالُ في النّاس ويستشري

(1) أبو حيّان، ارتشاف الضّرب: 2/1034.
(2) سيبويه، الكتاب: 4/228.
(3) الاسترابادي، شرح الرّضي على الكافية: 1/1038.

حسنُ الفصل لتمامِ الاتّصال، في قولِه تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾:

فليتكَ تحلُو والحياةُ مريرةٌ *** وليتك ترضى والأنامُ غِضابُ

﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾، حسُنَ الفصلُ هنا عن ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾، وعدمُ العطف لتمام الاتّصال من دونِه، ونفيُ الفعلِ المضارعِ هنا يدلُّ على عدم وقوعِه، ففي لسان العربِ أنَّه إذا عبّر بـ(يَفعَلُ)، ولم يكن هذا الفعل واقعًا، فإنّ نفيَه يكونُ بـ(لَا يَفعَلُ)[1]، ومن كمال الاتّصال جوازُ جعلِ جملةِ ﴿لَا يَضُرُّكُم﴾ على الجزم جوابًا للأمر، في ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾[2]، أي إن لزمتُم شأنَ أنفسِكم وصلاحِها، فإنّه لا ضررَ عليكم، في حال الاهتداء، ولو ضلّ أهلُ الأرض جميعًا، وقد بيّنا كثرتَهم بدلالة (مَن) الدّالّةِ على الكثرةِ من غير وجهٍ.

قوله: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾، الآيةُ تصحُّ للمستقبل منَ الزّمان:

القرآنُ صالحٌ لكلّ زمانٍ ومكانٍ، وليس في التّكاليف ما يَخرجُ عنِ الإمكان

وقد "كان المؤمنون تذهبُ أنفسُهم حسرةً، على أهل العُتوّ والعنادِ منَ الكفرة، يتمنَّون دخولَهم في الإسلام"[3]، ولذلك خُوطبوا بهذه الآية، وتصحُّ لما استُقبلَ منَ الزّمان، لما رُوي "عن ابن مسعود أنّه قال: ليس هذا بزمانِ هذه الآية، قولوا الحقَّ ما قُبلَ منكم، فإذا رُدَّ عليكم فعليكم أنفسَكم"[4]، تخصيصًا لهذه الآية، وتعميمًا للقرآن، فإنّه مُصلحٌ لكلّ زمانٍ.

الآيةُ علّةٌ لما قبلَها، والمعاني يرتبطُ بعضُها ببعض:

فعلُ الهدايةِ يتأتّى بالثّبات والطّلبِ، ولا يضرُّ من ضلَّ واضطربَ

وتحتمل جملةُ ﴿لَا يَضُرُّكُم﴾ الرّفعَ على الاستئناف، تعليلًا لما قبلَها[5]، أي الزموا إصلاحَ أنفسِكم، لأنّه لا يضرُّكم من ضلّ إذا اهتديتُم، وقد جاء فعلُ الهداية (اهتدى) على وزن (افتَعَلَ) ومن

(1) سيبويه، الكتاب: 3/117.
(2) السّمين، الدّرّ المصون: 4/452.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/304.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/249.
(5) الآلوسّي، روح المعاني: 7/45.

معانيه التّصرّفُ، وهو الاجتهادُ والعملُ والجدُّ والاضطرابُ كي يحصلَ الفعلُ[1]، وهو هنا فعلُ الهداية، والمعنى أنّكم ما وصلتُم إلى هذه الحالة منَ الهداية، إلّا بعد ذلك الجدِّ والجُهد والطّلبِ، فلا يضرُّكُم ضلالُ من ضلّ من غيركم، وفي ذلك معنًى آخر مقابلٌ له، يفسّرُه قولُه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ [الحجّ: 11]، فضلالُ هذا أسرعُ.

التّعبيرُ بالفعل الماضي ﴿ضَلَّ﴾ يفيدُ الثّبوتَ والاستقرارَ:

والتّعبيرُ بالفعل الماضي ضلّ يفيدُ الثّبوت والاستقرار، بل ويفيدُ قربَه منَ الاسميّة، والفعلُ ضلّ هنا بمعنى الضّلال، أي لا يضرّكم من كان على ضلال؛ لأنّ هؤلاء لم يكونوا مهتدين ثمّ ضلّوا، كما يُفهم منَ الفعل؛ لأنّ معنى ضلّ أنّه كان مهتديًا ثمّ ضلّ، والصّوابُ غيرُ ذلك؛ لأنّ المعنى "أنَّ المؤمنينَ كانَ يشتَدُّ عليهم بقاءُ الكفّارِ في كُفرهم وضلالتِهم"[2]، فهم في ضلالِ الجاهليّة أصلًا، فالفعلُ هنا ليس على بابه، من كونِه يدلُّ على الحدثِ المقترنِ بالزّمن، بل استخدمَه استخدامَ الأسماء، وهذا من خصائصِ الأسلوبِ القرآنيِّ.

الفعلُ هنا لا يدلُّ على الحدثِ المقترنِ بالزّمن، بل استخدَمَه استخدامَ الأسماءِ

التّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ على حذف مضافٍ:

ولأنّه أتى به صلةً للاسم الموصول (مَن)، والاسمُ الموصولُ هذا يدلُّ على الذّات، والمقصودُ بهم الّذين كفروا بذواتِهم وشُخوصِهم، ولما كانت الذّاتُ لا تتّصف بجِلٍّ ولا بحُرمةٍ، فإنّ التّعبيرَ هنا على حذف مضاف، أي "لا يضرُّكم ضلالُ الضّالين، وجهلُ الجاهلين، إذا كنتم مُهتدين"[3]، ولأنّ التّحذيرَ واقعٌ في سياق الضّلال، لا سياقِ

التّحذيرُ واقعٌ في سياقِ الضّلال، لا سياقِ الأشخاص

(1) الاستراباذيّ، شرح شافيّة ابن الحاجب: 1/110.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/118.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/2189 - 2190.

الأشخاص أنفسِهم، وأنّه وإن كان غيرَ مستحيل، لكنّه يكونُ في باب الأذى، كما صرّح به القرآن الكريم بقوله: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران: 111].

التّعبيرُ بالمصدرِ الميميّ ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ فيه إشارةٌ إلى عودِ الإنسان إلى الأصل:

التّنصيصُ على العُموم استبعادٌ لاعتبار الكلامِ على التّغليبِ

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾: فإنّ (إلى) حرفٌ يفيد انتهاءَ الغاية، ولفظُ (اللّه) لفظُ الجلالة اسمٌ مجرورٌ، فالانتهاءُ يكون إليه تعالى، والجارّ والمجرور متعلّق بمحذوف؛ خبر مقدّم جوازًا، وقولُه: ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ مبتدأ مؤخّر مرفوعٌ، وهو معرّفٌ بإضافته الى ميم الجمع، فإنّكم عائدون إليه، وهو مصدر ميميٌّ، والمصدرُ في اللّغة الأصلُ الّذي تصدرُ منه المياه، وهو المبدأُ، فكان في ذلك إشارةٌ إلى عَودِ الإنسان إلى الأصل، ثمّ زاد عليه (جميعًا)، بما يناسبُ الجماعةَ "للتّنصيصِ على العُمومِ، وأن ليسَ الكلامُ على التّغليبِ"[1].

التّعبيرُ بالحاليةِ بلفظ ﴿جَمِيعًا﴾ لفائدة التّغيّر وعدمِ الثّبوت:

﴿جَمِيعًا﴾ وهو حال، ومعنى ذلك أنّه متغيّرٌ، فالحال تدلُّ على الانتقالِ والتّغيّرِ والتّحوّلِ، أي أنّ اجتماعَهم لن يستمرَّ، بل سيتغيّر فكيف يحصلُ ذلك؟ الجواب في أنّ الحقّ ﷻ ذكرَ ﴿جَمِيعًا﴾ هنا، فيما لم يذكره مثلًا، في قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ [هود: 08]، من غير ﴿جَمِيعًا﴾، كما في المائدة، هنا لأنّ الخطاب هنا للكافرين والمؤمنين[2]، فمرجعُ هؤلاء وأولئك إلى اللّه، وسيجمعُهم بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾، وهو منصوبٌ على الحال، لأنّ هذا الجمعَ سيكون مؤقّتًا بيوم الحساب، ولن يكونَ على جهة الدّوام، فسيكون مصيرُ المؤمنين الجنّةَ، ومصيرُ الكافرين النّارَ، فحَسُنَ التّعبيرُ بالحالية بلفظ ﴿جَمِيعًا﴾.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/79.
(2) الكرمانّي، أسرار التّكرار في القرآن، ص: 139.

تقدّمُ الخبرِ على المبتدأ لإفادة التّخصيصِ والتّوكيدِ في قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾:

القصرُ الحقيقيُّ في مرجعِ العبادِ إليه تعالى وليس إلى غيرِه

وهنا تقدّمَ الخبرُ على المبتدأ لغرَضِ التّخصيصِ والتّوكيدِ، وكذلك "للاهتمامِ بمتعلّقِ هذا الرُّجوعِ، وإلقاءِ المهابةِ في نفوسِ السَّامعينَ"[1]، فإنّ مرجعَ العبادِ إليه تعالى، وليس إلى غيره، ففيه قصرٌ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ، فلو قال: (مَرجِعُكُم إِلَى اللّهِ)، لاحتمل وإلى غيره، وهو محالٌ، وقد ورد مثلُ هذا التّركيبِ في أكثر من عشرِ آيات، جميعُها تقدّمَ الجارُّ والمجرور على المبتدأ، على اختلاف المجرورِ، فقد يُعبّر بقوله (إِلَيّ)، والضّميرُ يعود عليه سبحانه، وقد يعبّرُ بقوله (رَبِّكُم)، أو غيره، بحسبِ السّياق الّذي يقتضيه، إلّا أنّ العاملَ المشتركَ هو تقدّمُ الخبر على المبتدأ جوازًا، لتحقيق غرضِ القصرِ.

أثرُ السّياقِ القرآنيّ في خواتيمِ الآياتِ:

تناسبُ خواتيمِ الآيات مع المعاني والدّلالاتِ من بلاغةِ القرآن الكريمِ

هذه القطعةُ منَ الآية إلى تمامها مذكورةٌ في الآية الثّامنة والأربعين منَ المائدة، إلّا أنّه ختمَ كلّا منَ الآيتين بشيءٍ مختلفٍ، فقال في الأولى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: 48] وقال في الثّانية: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [المائدة: 105]، فقد ذيّلَ الآيةَ الأولى [المائدة: 48]، ﴿بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾، فيما ذيّلَ الآيةَ الثّانيةَ [المائدة: 105]، بقوله ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، وسرُّ ذلك هو السّياقُ القرآنيُّ القريبُ الّذي يتحكّمُ في تذييل كلِّ آية بما يناسبُها، ويُقصدُ بالسّياق القرآنيّ المجرى الّذي تسير فيه الآيةُ بصورةٍ عامّةٍ، فإذا رأينا سياقَ الآية الأولى، فهو قولُه تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/79.

أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ [المائدة: 48]، نجدُ أنّ سياقَ الآيات يتحدّثُ عنِ الاختلاف، وما يَجري مَجراه، ثمّ قال، ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ﴾، والحكمُ يكونُ بين المُختلِفين، ثمّ نهاه عن أن يتّبع أهواءَهم؛ فمعهُ الحقُّ، ومعهم الأهواءُ، وهذا اختلافٌ بين الطّرفين، ثمّ جعلَ لكلٍّ منهم شِرعةً ومنهاجًا، ولم يجعلهم على سَنَنٍ واحدةٍ، ثمّ أخبر أنَّ جعلَهم أممًا مختلفين، وليس أمةً واحدةً أمرٌ مقصودٌ، وله علّةٌ وسببٌ، فترى السّياقَ كلَّه يَجري في الاختلاف، فكان منَ اللّائق والمناسِب أن يذيّلَ الآيةَ بما يناسبُ السّياقَ فقال: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: 48]، أمّا الآيةُ الثّانيةُ فسياقُها في العملِ والاهتداءِ، وما يكونُ من أسبابه، في الأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فختمَها بما يناسبُ ذلك السّياقَ.

دَلالةُ الفعل المضعَّفِ في قولِه: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾:

في موقف القيامةِ الأكبرِ يُنبّأُ الإنسانُ بما قدّم وما أخّرَ

﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: نجدُ أنّ (الفاء) عاطفةٌ، ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ جملةٌ فعليّةٌ من فعلٍ وفاعلٍ ومفعولٍ أوّل وهو الكاف، والميم للجمع، والفعلُ (يُنبِّئ) وزنُه (يفعّل)، وهو مضعّفٌ ماضيه (فعّل)، وما كان على هذه الصّيغة فإنّه يفيدُ المبالغةَ والتّكثيرَ، وأنّ الحقَّ ﷻ سينبّئكم بجميع أعمالِكم صغيرِها وكبيرِها دقِّها وجلِّها، ظاهرِها ومخفيِّها، بما يُعطيه هذا الفعلُ من دلالةِ المبالغة والتّكثير، يُؤيّده أنّ مدخولَ حرف الجرّ الباء على (ما) وهو اسمٌ موصولٌ دالٌّ على العموم والاشتراكِ والتّعدّد، بما يُومئ إلى الكثرة، خلافَ

(الّذي) الدّالُّ على الموصوليّة فقط، و(بما) متعلّقٌ بمحذوفِ المفعول الثّاني للفعل (ينبّئُ).

إيثارُ التّعبير بالفعل: ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ على الفِعل يُخبِرُ:

النّبأُ من الله إخبارٌ بما علمَ للمُخبَر منَ البشر به

والتّعبيرُ بهذا الفعل، مع أنّ مرادفَه المعجميَّ هو أخبرَ إلّا أنّه جاء هنا بالفعل يُنبِّئ، فيه زيادةٌ على تنبيههم وتذكيرِهم ذلك، "أَنّ النّبأ لَا يكون إلَّا للإخبار بما لا يعلمهُ المخبَرُ، ويجوز أن يكونَ الخبرُ بما يعلمهُ وبما لا يعلمهُ"[1]، أي أنّه عالمٌ بأمورٍ لا تعلمونَها، هو يُسيّرها بما فيه مصلحةُ العباد، وقد تظنّون أنّكم على درايةٍ بها، إلّا أنّ علمَه تعالى يحيطُ بما تعلمون، وما لا تعلمون، فلم يَحسُن هنا التّعبيرُ بالإخبار، وإن كان معناه قريبًا.

الجملةُ مبنيّةٌ على الإيجاز بإضمار الفاعلِ وحذفِ العائدِ:

حذفُ ما يُعلمُ جائزٌ في لسان العربِ

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: جملةٌ مكوّنةٌ من (كان واسمها وخبرها)، وهي صلةُ الموصول (ما)، وتحتمل (ما) أن تكون مصدريّةً، فتكونَ على تأويل مصدرٍ، تقديره (فَيُنَبِّئُكُم بِعَمَلِكُم)، وهذه الجملةُ الأخيرةُ منَ الآية مبنيّةٌ على الإيجاز غيرَ مرّة، ففي (يُنبِّئكم) إيجازٌ بالإضمار، فالفاعلُ مضمرٌ يعود عليه سبحانه، لأنّه مذكورٌ بقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾، فحسُنَ الإضمارُ لغرض الإيجاز، وإذا كانت (ما) موصولةً، فإنّها تقتضي عائدًا، وهو هنا محذوفٌ، تقديرُه (بِمَا كُنتُم تَعمَلُونَهُ) وقد حذفه للإيجاز، ولأنّه مفهومٌ منَ السّياق، فحذفُ ما يعلم جائزٌ في لسان العرب، والفعلُ يُنبئ بمعنى يُخبر، أو يُعلمُ يقتضي وجودَ ثلاثةِ مفعولات؛ ، لأنّها من باب أعلمُ وأرَى كقول الشّاعر[2]:

نُبِّئْتُ زُرعَةَ والسَّفَاهَةُ كَاسمِهَا *** يُهدِي إليّ غَرائبَ الأَشعَارِ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 41.

(2) ابن مالك، شرح الكافيّة الشّافية: 2/570.

فالفعل نبّأ متعدٍّ إلى ثلاثة، الأوّل النّائب عن الفاعل، وهو التّاء، والثّاني زرعةَ، والثّالث جملة (يُهدِي).

دلالةُ حذفِ المفعولِ الثّالثِ للفعل ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾:

الفعلُ (يُنَبِّئُكُم) خارجٌ عن معناه منَ الحقيقة إلى المجاز

ثبت الحذفُ في مفعولِ يُنبِّئ الثّالثِ، على تقدير (بِمَا كُنتُم تَعمَلُونَ حقًّا أو باطلًا)، وسرُّ حذفِه أنّه ذكرَ جميعًا، وهو ما يدخلُ تحته المؤمنون والكافرون، فحذفَ المفعولَ الثّالث ليكونَ عامًّا متخيَّلًا، يمكنُ أن ينصرف إلى هؤلاء وإلى أولئك؛ لأنّه جمعَهم تحت حالٍ واحدةٍ، والمعنى: فينبِّئكم بما كنتم تعملون "من أعمال الهدايةِ والضّلالِ، فهو وعدٌ ووعيدٌ للفريقين، وتنبيهٌ على أنّ أحدًا لا يؤاخَذُ بعمل غيرِه"[1]، فهذا هو المفعولُ الثّالثُ.

فهذه ثلاثةُ أنواع منَ الإيجاز، في جُزءٍ منَ الآية، والفعلُ ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ خارجٌ عن معناه منَ الحقيقة إلى المجاز، فليس المقصدُ هو الإخبارُ، بل "يجازيكم حسبَ ذلك، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ، ففي الآية وعدٌ ووعيدٌ"[2]، فإنّ يومَ القيامة ليست ظرفًا للإخبار، بل للجزاء ثوابًا وعقابًا.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/136.
(2) صافي، الجدول: 11/29.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع، سورة المائدة من الآية 26 إلى الآية 106
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة المائدة من الآية 26 إلى الآية 106 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 9 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-61-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 9 : سورة المائدة من الآية 26 إلى الآية 106.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-61-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3504784 بتاريخ 2023/03/27م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»